الشعور بالحياة والحرية ، وليس هذا كله بحيث يفهم فى إطار من التحيز وضيق الأفق ، فالحياة الجادة التى يصورها العقاد لاتعنى إنكار الهزل ، والحياة الجميلة الحرة لا تعنى إنكار القبح ، هناك فرق بين الاشتغال بالهزل والاشتغال بتمثيله ، وفى تمثيل الهزل حظ وافر من الجد ، وفى تصوير القبح حظ وافر من الجمال ، والشعور بالحياة والحرية يحتاج الى تأمل العوائق التى تحول دونهما ، ولايمكن أن نتصور الحرية بغير عائق من الضرورة أو القيد . فلنشعر بالضرورة شعور راغب فى الحرية .

وبعبارة أخرى رأى العقاد التأملات اللغوية فى عصره وقبل عصره لاتصور القيم التى يؤمن بها ، وهى قيم لم يمل العقاد قط من اعتبارها قيم الحياة والحرية ، كان العقاد يعبر عن خواطره تعبيرا أقرب إلى الغناء والنشيد ، لأنه كان يفرق تفرقه حسنة بين خدمة العقل المتلكىء الحذر ، وخدمة الروح المتوثب الجسور ، وربما كانت هذه العبارة الأخيرة أوضح قليلا من كلمات أخرى فى معجم العقاد ، وعلى رأسها الطبع والصدق والشخصية ، وربما كانت كلمة الحرية خليقة بوجه خاص أن تكون هاديا لنا فى تفهم هذه الكلمات ، وليس من المستطاع أن نفهم أيضا مايعنيه العقاد من كلمة الصنعة بمعزل عن نظرته الى الضرورة ، ومن أجل ذلك كان إيضاح الموقف محتاجا الى مزيد من التأمل ، وبخاصة ذلك الجانب المتعلق بالتقابل بين الضرورة من ناحية ، والحرية من ناحية ثانية .

والذى يجمل بنا أن نفهمه أن قيود الضرورة هى مسبار مافى النفوس من جوهر الحرية ، انظر الى بيت الشعر وتصرف الشاعر فيه ، إنه مثل حق لما ينبغى أن تكون عليه الحياة بين قوانين الضرورة وحرية الجمال ، فهو قيود شتى من وزن وقافية واطراد وانسجام ، غير أن الشاعر يعرب عن طلاقة نفس لا حد لها حين يخطر بين هذه السدود خطرة اللعب ، ويطفر من فوقها طفرة النشاط ، ويطير بالخيال فى عالم لا قائمة فيه للعقبات ، ويمضى فيقول : تصور عالما لا موانع فيه ولا أثقال ، ثم انظر ماذا لعله أن يكون . ولكننا إذا رزحنا بقيود الحياة وخضعنا لها فقد نسينا غرض الحياة الأسمى ، أما إن جنحنا الى الأخرى فلنعلم أن عصا السحر التى تلمس قيود الضرورة فتردها للنفس حلية تزدان بها ، وتومىء الى الوقر الجاثم فإذا هو مطية يخف بها الخاطر إلى أبعد أجوائه ـ هى ملكة الفن الجميل ، فلا صناعة ولا زراعة ولا علم ولا عمل من أعمال هذه الحياة يمكن أن يتم على الوجه الأمثل فى يد صانع لا ذوق فى سليقته للجمال ، ولا قدرة له على تناول الأشياء كما تتناولها يد الفنان .